وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فإذا بهم يردون النصر فيها إلى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة. لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس. لأن الرماح كانت تتلاحق في طولها على حسب الصفوف. وفي معارك أخرى قيل: إنَّ دواعي النصر إنما ترجع إلى قيام الفرسان على الجانبين ... وكثيرًا ما يقال: إنَّ اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كفيل بالغلبة في بعض الميادين، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال: إنَّ تربص الفرسان بمعزل عن القتال إلى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال، ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر إلى قاعدة موجزة فيقولون كلامًا يحسن الاطلاع عليه، والمعنى ... ولا خطأ في هذا الإيجاز، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب. فلا ينقص أو يزيد، ولا يتقدم أو يتأخر، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق ... وإذا كان كل شيء في المعركة يتوقف أحيانًا على كذا أو كذا من الخطوات في السبق إلى حومة القتال، فتفصيل أسباب النصر في المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل؛ وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالإجمال دون التفصيل. وإجمال القول في توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال، كان يضع الخطة في موضعها ساعة الحاجة إليها ... فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعي والأحوال. وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية يعززها ما استطاع في جيشه ويضعضعها ما استطاع في جيش عدوه. فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة، ●●● وإلى هذا، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذي هو ضرب من العمل، ولكنها في العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمع وجنان ... كان يثير المنافسة الكريمة في صدور جنده وأعوانه، فيدعوهم إلى التمايز والتناظر لينفث فيهم مع عزيمة الإيمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار. ●●● ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد إلى هذا المقتل في منازلات للمستبدين والطغاة. فإذا أصيب القائد في الجولة الأولى، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات. ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التي يجمعها «الخبراء» في عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات. وإنما يتأتى الضرب في العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات. لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية، والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أي موضع تكون ...» ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجري في عصرنا الحديث فيقولون: «وعلى هذا يجري الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفي خلالها، وتتقدم الكراديس في أثناء ذلك على نظام المعركة، وهذه هي ربيئة خالد للاستطلاع، ومسيره «على التعبئة الكاملة» التي يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذي كان يسير عليه، وتقرأ في كتاب «الأسلحة وفنون التعبئة»٢ لمؤلفه ونترنجهام الذي كان محررًا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة: «إنَّ سرعة الحركات وقوة الإصابة وتدبير الوقاية هي الآن — كما كانت في كل زمان — بعض مفاتيح النصر التي لا شك فيها، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام، ●●● كما في المصارعة — إنما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادًا لا يناسب الجهد الذي يلقاه خصمك، وقد يضعف الحسم في النتيجة مع ذاك ... وعلى نقيض هذا، ينبئنا التاريخ العسكري في جميع العصور لا في عصر واحد، وهذا الإخلال بالتوازن هو الغاية التي كان يتوخاها ابن الوليد، وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن، جنودًا، ثم يجترفوه بجملة من الفرسان في الوقت اللازم، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين، فإذا ما استطاع الجند الإغريق أن يقتربوا — وكل شيء يتوقف على هذا — تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة ...» بل ومن الفيلة في بعض الأحيان، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التي يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب إلى السماء، فإنها تنتظم على سنن فحواها أن التغيير لا ينبغي وأنَّ العادات المأثورة كلها حسنة قويمة، إنَّ كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الإطلاق، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقًا للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد وإنَّ هذه الجماعات لتخرج جيوشًا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغِيَرِ والطوارئ ...» وكان خالد يلبي الضرورة عفو الساعة في ترتيب كل كتيبة وكل سلاح، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه في كره وفره وهجومه ودفاعه. وإذا بدا له أنَّ الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة، فما هي إلا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها إلى قائدها المختار: «تمايزوا أيها الناس» فإذا هم بعد لحظات متمايزون ... وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه، فكان جنده يصبرون على الشدة ولا

Summarized by © lakhasly.com

يروعهم فقد مفقود؛ وكانوا يصبرون على الهزيمة؛ وأن يجتمعوا بعد تفرق، فهم يحسبون النكوص ضربًا من التحفز للوثوب، أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعًا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة إذا سقط منها الحجر الأول ... فلا تماسك بعد ابتداء السقوط ... فالإسكندر في وقعة «أرهل» هزم جيشًا فارسيًا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة، وبلزاريوس في وقائع أرمينية هزم جيشًا فارسيًا تقدر عدته بأربعين ألفًا أو قرابة الأربعين ... والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معًا في هذا الميدان؛ وزاد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم،

Summarized by © lakhasly.com